

قال الراوي :

مذ تفتحت نفس دون خوات للحياة وهو كالأعصار لا يهدأ ، يعيث دماراً في قلوب النساء ويزرع الرعب في نفوس الرجال ، آباء كانوا أو أزواجاً أو إخوة . . . وقد طوّف دون خوان في بمالك اوربا كلها ، فاذا له في كل بلاط مخادع غوام وفي كل مدينة مطارح حب . . . ولكنه على كثرة قلبه لم يترك في مكان ذرة من روحه ، وما كان هواه ، على تعدده ، إلا قدراً يسوقه دون هواة . . . حتى بلغ الأربعين .

* * *

الأفق عليقة تلتهب بنيران الأصيل ، والسماء حديقة أزهر فيها العصفور والبنفسج والورد ، والوادي الكبير يتلوى كالعنوان حرا في ملون الحلقات ، يلتف بكسل حول إشبيلية التي تتوء بهذا الاصيل من تموز ، كأنها من أنفاسها الحرشي تحت سراق من الرصاص .

وفي الحبي الذي تتكأ كأ

بيوته خلف الكاتدرائية
كأنها نسوة تحلقن لحديث
حفي ، كان دون خوات
يدرع بهو داره كالأسد
الحيس ، وقد غاب نظره
في أفق بعيد . وكان هذا

ديده كل يوم منذ شهرين تقريباً ، منذ رأى كارمن لأول مرة في اعياد عيد الفصح .

وارتسمت على شفتي دون خوان بسمه ضئيلة فيها الخنان وفيها الشوق والتطلع ، وعاد به خاطره الى ذلك اليوم المشهود ، يوم كان يسلي ملاله بالاختلاط بعشرات الألوف من الواردين على إشبيلية بجيهم ورجلهم للاشتراك في مهرجانات العيد العظيم ، فيقف على الرصيف ليشهد موكب التائبين بمسوحهم السود يحملون الصابان والشموع وصور القديسين ، او يتذوق النبيذ الاشبيلي الابيض في احد الحوانيت المقامة في الهواء الطلق ، او يتبع بنظره فتاة استردفها حبيبها على حصان ابيض وقد ارتدت فسطانها الفضفاض المكشكش وزرعت وردة حمراء في شعرها الاسود وأخذت توزع النظرات الماجنة على الرجال ، كل الرجال .

وكان دون خوان يجب هذه الجوع من البشر يخوض عابها كأنها بحر من النسيان . فهو كان ينشد النسيان ، نسيان الكهولة المكشرة عن أنيابها المقبلة عليه بالشيب وبالبرد في العظام والدم . فهو قد جاوز الاربعين منذ أعوام قلائل ، واستقر ثقلها في نفسه ، ولكن ذلك لم يمن من قوامه السامق ولم يطفىء بريق عينيه بل ملاًهما دنى من التجارب وأضفى عليه من الرجولة الرزينة ما تحقق له قلوب العذارى وتحنو اليه كل النساء .

وسار دون خوان كأن الأرض ملكه ، فقد داخله الفرح الذي ساد المدينة على وسعها ، وساقته قدماه نحو برج الذهب القائم على ضفة الوادي الكبير ، حيث اقيمت منصة واسعة يتبارى عليها الراقصون ، ووقف مع الواقفين يتفرج ويفتح أسماعه لرنة القيثارة . ولم يكن دون خوان ليدري بان قدره قد ساقه الى هذه المنصة بعينها ليجول مجرى حياته على انغام رقصة غجرية ، وإن يكن قد أحس بهيجان يسري في عروقه حين اخذ العازف يجري اصابعه

بسرعة محومة على الأوتار
يستنطقها نغماً شبقاً يركض
في السمع كأنه سيل من
البار .

ثم توقف العزف وبدأت

كارمن . وعلم دون

خوان ان اسمها لا يمكن ان يكون إلا كارمن ، إذ جمعت كل ما يلهب الخيال ويجمع بالقلب في نساء إشبيلية ، واخذت كارمن ترقص . . .

وبدأت تتلوى - والاورار تصاحبها - دون ان يتحرك في جذعها عرق . فقد تركزت الحركات في ذراعها يعيدشان لذاتها وينطقان بلغة الصناجات ، بينما مال عنقها على كنفها وانسرح شعرها الفاحم يداعبه النسيم الآتي من النهر ، فكأنها شجرة سامقة تسري فيها الريح - ريح الموسيقى - فتصفق بأغصانها وتهزج بألاف الاوراق فيها .

ثم تسارع الايقاع ، وأخذ القيثارة يزفر زفير اغصان الصنوبر تجري فيها النار فتنفجر وتنفذ بألسنة اللهب ، وانطلقت كارمن - كأنها أصيبت بمس او ركبتها شيطان الرقص - تضرب الارض بعنف طوراً ، وتداعبها طوراً آخر بلطف

نهاية دون خوان .

قصة حديرة بقلم صباح مجي الدين

كأنها تهددها .

وكما بدأت فجأة توقفت دون إنذار وهوت على الارض كعصفور جريح تناثر ريشه الجميل وأنمضت عينها في إجهاد لذيذ . وعلم دون خوان ان مصيره قد تعلق بهذه الفتاة وانه مقبل على احداث خطيرة .

ولم يتأخر لحظة امام السبيل التي شعر انها خطت له بيد القدر ، فتقدم من كارمن يهتها ، ثم استأذن منها ان يرافقها في عودتها الى بيتها ، فقبلت بعد ان ألفت عليه نظرة خاطفة ، فحصته فيها من فرعه الى قدمه ، وزانته وكالته .

وسار الاثنان عنيفة معاً ينظران الى النهر تمخر فيه القوارب المزينة بالاقمشة والسجاجيد الملونة ، تبت في انحاء الافق رنات القيثارة وهزج الاشبيليين يرقصون ويغنون . ثم عبرا الجسر الكبير وتوجها نحو حي « ترينا » حيث يقم العجر ، المنتشرون في انحاء اسبانيا يعيشون فيها فساداً ويملاونها موسيقى وشعراً . ولقد أحب دون خوان هذه الراحة وسكن اليها ، ولزمها فلا يفارقها الا للمأماً . ولقد خالط وجه كارمن وعيناها الذيجتان الذابتان كيانه ، واستقى من جسمها الريان شاباً جديداً وعشرين ما كان يحلم بعودتها . ولم يبخل عليها بشيء ، إذ لم يعد لشيء سواها قيمة لديه ، فأعقد عليها هداياه واستحضر لها القلادات من طليطلة والحرائر من غرناطة والعمود من اقاصي الارض ، فعدت العجربة ترفل في حلس لم يكن لها في اسبيلية مثيل . وملأت علاقة دون خوان بكارمن الاسماع ، فعجب لها بعض الناس — ألم يكن دون خوان قد بدأ يهدأ ويثوب الى رشده ؟ — اما الاصدقاء فهزوا رؤوسهم امام القدر المحتوم يسوق الضليل وقطعوا عنه زيارتهم شيئاً فشيئاً .

ولم يأبه دون خوان بكلام الناس أو بخذلان الاصدقاء ، إذ كان بغنى عنهم في حبه يحيا فيه ساعات هنيئة ساعة ، واخرى عاصفة ترتج لها اركان حياته .

وامس ، كان الجو عاصفاً بينه وبين كارمن ، وليس يذكر ما دعاها الى ان تثور ، فهي كالبحر لا أمان لها . وقد افترقا شبه غاضبين ، وعوّل دون خوان أن لا يعود اليها قبل اسبوع . ولكن ها هو ، وقد دنا مواعده اليومي معها ، يدور كالاسد الحبيس . ذلك ديدنه منذ شهرين ، كلما تشاجرا لا يكاد ينام الليل ويقضي النهار مريضاً من القلق .

وإذ دقت السادسة في ساعة الكاندرائية لم يعد دون خوان

يطبق صبراً فخرج من بيته الى الشارع علته يجد سلواه في وجوه المارين وضجة الحياة في المدينة . وسارت به خطاه نحو سوق الصاعة واخذ ينظر الى الواجبات فعلق نظره في قرطين من الذهب المشغول كأنه تطريز يدوي ، تنام في شباكها لؤلؤتان صافيتان تبرقان بريقاً خافتاً حياً . وبدأ له ان تينك اللؤلؤتين عينا كارمن ترنوان اليه كما تفعل كلما جاءها يفجأها بهدية جديدة . ودخل الدكان — في وَاكِه — فابتاع القرطين ثم توجه مسرعاً نحو حي « ترينا » دون ان ينتظر هبوط الليل كالمعتاد . ها هو البيت ، وها هو الدرج الخارجي الذي صعده مرات لا يذكر عددها ، وعاد منها مثقلاً بالسعادة كالغائص الى قلب البحر يأتي بالدر والمرجان . واخذ يصعد الدرجات ببطء وهو يمسك سيفه بيده كيلا يسمع صليله ، واخذ يتسم وهو يتخيل دهشة كارمن حين ستفتح له الباب .

وإذ لم يبق بينه وبين الباب سوى درجتين جمد في مكانه كأنه تمثال من الحجر ، فلقد سمع لغطاً وراء الباب ، وتبين صوت رجل يضحك وصوت امرأة — انه صوت كارمن ! — يجاوبه . وكاد دون خوان ان لا يصدق اذنيه ، ثم قال : لعله اخ لها او ابن عم . ولكن كارمن قالت لي انها وحيدة لا اخ لها ولا ابن عم ... اذن من هذا ؟

واحس بيورد قارس مقيت يدب في انحاء جسمه كأن الموت ينشب اظفاره فيه وبدت قطرات من العرق على جبينه . ثم اجتاحه غضب هائل كره في عروقه كالمعدن المذاب وانطلق كالثور الهائج نحو الباب . ولكن شيئاً في نفسه استوقفة ، ودعاها الى التسلسل بخطى الذئب ، ثم وضع اذنه على خشب الباب واخذ ينصت ، فسمع صوت كارمن تقول :

— ابق قليلاً بعد .

وصوت رجل فيه حرارة الشباب ودعابه :

— لا .. لقد حان موعد صاحبك .

— ذلك العجوز القرد .. ما اظنه يأتي اليوم .. لقد نخاصنا امس فألقت في وجهه من الكلام ما يمنع كلباً من العودة ، فما بالك برجل ؟

— كيف تقولين هذا عنه ، وهو متعلق بك .. وانت كذلك كما يقال .

— ها ! ها ! قبح الله وجهه . لولا ما يعطيني لما تحملت شيخوخته .

— اهو شيخ ؟ لقد قيل لي انه في عنفوان الرجولة .

— عنفوان الرجولة ؟ لقد جاوز الاربعين ، وليس ذلك ما يلزمي للثاني عشرة التي ما اكلمتها بعد .
— وما يلزمك اذن ؟

وظل هذا السؤال دون جواب ، اذ ساد الغرفة ضجة عظيمة . وانتقل كرسي على الارض . ثم ارتج السرير كأن كارمن والشاب قد أهوبا عليه معاً . ورنت قبل متسارعة اعقبها ضحك رخو .

ثم عاد صوت الشاب يقول في دل :

— كيف تفضلين شاباً فقيراً مثلي على دون خوات الغني النبيل ، الذي اخضع لسحره اجمل نساء اسبانيا ؟
فقالت كارمن :

— لست ادري اين هذا السحر الذي يتحدثون عنه في اشبيلية .. انه شيخ قبيح ، وسأقولها له اذا جرؤ وعاد الليلة . لقد سئمت حياة النفاق ، ابتسم له وابددي السرور وعياني على الساعة تنتظران ذهابه ، وهو يشكو لي هيامه وغرامه في الفاظ لا افهمها ، ويطلق علي اسماء لا ادرك معناها . ادري كيف يسميني ؟ انه يسميني « واحة » ادري انت ما هي الواحة ؟ ثم ما لي وللكلام ، انا اريد الحياة تنبض دماً وتنطق صخباً وهياجاً . وهنا قاطعها الشاب مستضحكاً :

— ها ! لقد فهمت . اذن فهو .. فهو ..

فانفجرت كارمن ضاحكة :

— لا . ليس الأمر كما تظن ، فما زالت فيه بقية ، ولكن قوله اكثر من فعله ، وهو يحدث اكثر منه خليلاً .. ومهما يكن ، فما ابعده عنك في هذا المجال .

وخيل الى دون خوان ان البيت يمد على أسسه ، إذ انقلبت الغرفة الى ميدان صراع واختلط فيها الصباح والضحك وتعال شقيقات كارمن تنفذ من خلال الباب كأنها سهام اريشت إلى قلبه .

وكان دون خوان ، طيلة هذا الحوار بين كارمن وصاحبها يشرب كل لفة بشغف ، ويجد لذة كبيرة في آلامه ، ويستقبل سهام بصدره عليها تصيب منه مقتلاً . وبعد هنيهة ، سكنت نامة صاحبي البيت كأنها يستريحان من النضال، وغاب صوتاهما عن مسمع دون خوان وملاه وجيب الدم يصدق كالمطرقة متسارعة في صدغيه ، واسدل الغضب على عينيه

غشاء قرمزيًا . فامتدت يده الى مقبض سيفه وانتضاه وبدأ في وجهه بريق القتل .

ولم يدم الامر إلا لحظات استرخت بعدها ذراعه ، وهز دون خوان كتفيه في استسلام ثم اعاد سيفه الى غمده ونزل الدرج ببطء المريض الناقه وذهب على وجهه في الشوارع التي ذهبها المغيب .

وعادت به قدماه الى الجسر الكبير فوقف عليه يذكر اول يوم مرّ فيه هناك مع كارمن ، ثم نظر الى النهر الوادع ، وطافت في ذهنه صور من الراحة الابدية ، وبداله ان التيار يفتح له ذراعين من السلام والطمأنينة ، وانتفض دون خوان وطرده فكرة الموت ، وتوغل في المدينة التي شهدت هناءته منذ ساعة او اقل ، فوجدها لم تتغير في شيء ، ورفع عينيه الى مأذنة الكاتدرائية لعلها ماتت على اركانها فوجدها قائمة تطاول السحاب ، وآخر اشعة الشمس تموت على تمثال الايمان الذي يعلو قمة المأذنة .

وشعر دون خوان في قرارة نفسه انه انتهى ، وان واحتته التي علل النفس في الخلود اليها لم تكن الا سراباً ، وان كل الواحات التي استظل فيها وارتشف من ينابيعها لم تكن الا سراباً .

ولم يفق من حلمه الحزين الا امام باب الكاتدرائية ، ونظر الى الداخل ، فرأى الشموع تذوب في طمأنينة امام تمثال العذراء ، عذراء اشبيلية ذات الدموع ، فانساب في نفسه المعذبة فيض من السلام واجتذبه الهدوء الشامل في بيت الله ، فدخله بخطي المتخوف المتشوق ، ثم ركع امام العذراء يصلي .

* * *

قال الراوي :

وصححت توبة دون خوان فلبس مسوح الرهبان ، وأمضى بقية عمره في التعبد والاحسان ، وباع كل ما يملك وكوّن ماله لبناء مستشفى للفقراء والعجوز والنساء الطريدات . وما زال المستشفى قائماً في اشبيلية ، وفيه سيف دون خوان وقناعه .

وبلغ من تقى دون خوان ان ألقيت اليه أمور الدير الذي دخله ، فأداره خير إدارة ومات فيه في ريح القداسة ... وقيل ان بعض المعجزات قد حدثت على قبره .. ولكن لذلك حديثاً آخر .

صباح محي الدين

باريس